أصالة ومعاصرة بتآن

للدكتور محمد عزيز الحبابي

البحث الذى اختاره مجمعنا الموقر فى هذه الدورة ، هو « تراثنا اللغوى » . ما اطلعت عليه حتى تبادرت إلى ذهنى عن طريق تداعى المعانى ، بعض المفـــاهيم على رأسها : كنز ، وأصالة ، واستلاب لغوى ، واغتراب . وبالطبع ، فى عمليـــة تداعى المعانى يجر كل مفهوم معه معارضه فمثلا عندما برز فى الذهن مفهوم « أصالة » تبعه مقابله « معاصرة » .

وبما أن الوقت لن يسمح بتناول مجموع تلك المفاهيم سنكتفى بأقل ما يمكن منها .

* * *

عندما نقرأ العبارة (تراثنا اللغوى) ، نستنتج أننا أغنياء لغويا لكن ، إلى أى حد نستفيد من ذلك الثراء ؟ ألسنا كالجائع الجالس فوق كنز وهو يجهل ما تحته ؟ أو كما يقول شاعر عربى :

ومن العجائب ، والعجائب جمة
قرب الحبيب وما إليه وصول
كالعير فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

إننا نعى قيمة تراثنا اللغوى ، ولكن ستثماره دون حاجات الساعة الملحة . فإذا كنا قد عربنا التعليم ، أوقل مرافق التعليم ، فإن الحياة البيتية والمعاملات اليومية — أى الحياة المجتمعية — ما زالت خاضعة للدارجات . فخطاباتنا عامية لا علمية . من هنا يجب أن نبدأ . وقد بدأنا ولكن متى النهاية ؟

تلك مشكلة من مشاكلنا الكبرى ، وإن مجامعنا اللغوية تصارعها . أما المشكلة الثانية ، وهى أعم من الأولى وأعوص فهى الموقف من الأصالة والمعاصرة . لقد استبدت هذه المشكلة باهتمام أكثرية المثقفين العرب ، ولها ستتعرض هذه الصفحات .

يرى البعض أن التاريخ يفرض علينا أن نختار إما المعاصرة ، وإما الأصالة . تلك « إمّية » محرجة ومحيرة بلا مبرر .

(*) ألقى البحث فى الجلسة العاشرة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٨ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٣ من مارس ١٩٨٢ م .

١ ـ لكل عصر عصريوه :

لا اعتراض على استعمال « عصرى » وصفا لمن أحسن اندماجه فى القرن العشرين لكن من التجنى على اللغة وعلى الواقع أن نصف بعصرى من يتقن ـ فحسب ـ رقصة « السوينغ » و « بوب ميوزيك » . ويعرف آخر « موضة » فى الأناقة أو من يكثر من استعمال « حرمان» و « استلاب » و « إيديولوجيا » و « دياليكتيك » ، و« كبح » وألفاظ أخرى لها سحر« الموضة».

إن لفظ « عصرى » مشتق من عصر، فالعصرى من ينتسب لعصر . وبما أن كل الناس عاشوا أو يعيشون فى عصر ، فكلنا « عصريون » .

وضع | بعض المجـددين فى مقابل « عصرى » ـ زيادة على « رجعى » ـ لفظ «ماضوى» من« ماضوية » ، وهى عندهم ، اتخاذ الماضى مرجعا ، على حساب العصر، فكما أن الجميع عصريون (فأبونواس ـ مثلا ـ عصرى بالنسبة لعصر بنى العباس ومعاصر لهارون الرشيد . .) ، كذلك ماضوى لأن لكل شخص ماضيا ، عليه يتأسس شخصه (=شخصياته) ، وبه تحدد كينونته ويتم تشخصها . إن الماضى حضارة وثقافة ، أى تراث مشترك ، وذاكرة جماعية ، ومن هنا فهو «أصيل» فى الشخصية .

وبما أن التواصل من أبعاد الذات العميقة « الإنسان حيوان مدنى بالطبع » ، فكلنا « معاصرون » بالطبع ، معاصرة مع جميع من يحيون وإيانا نفس العصر ، وكلنا معاصرون لمن تجمعنا بهم ثقافة أو تراث ، لأن لنا ذاكرة شخصية وذاكرة جماعية .

عاصر أبو نواس هارون الرشيد وزبيدة ، وكان يحفظ المعلقات ، ويعرف الكثير عن أصحابها ، أكثر أحيانا مما يعرفه عمن عاشوا معه فى البلاط العباسى ، وحفظ أبو نواس القرآن واطلع على تاريخ الفترة التى تفصل وقته عن بداية الإسلام . ذاك هوأفقه الذهنى والثقافى ومنظاره على التاريخ الذى يمارسه وعلى التاريخ الذى يملأ ذاكرته ومخيلته ويثرى تفكيره .

فنحن جميعا إذن عصريون ورجعيون ماضويون ، فى نفس الآن ، وبالتساوى ، وسيبقى هذا التخريج مقولة محتملة الصحة إلى أن تحدد مفاهيم «معاصرة» و«ماضوية» « رجعية » تحديدات أخرى .

* * *

قام كثير من الكتاب العرب بتحديد « معاصرة » ، لكنهم وقعوا فى تناقضات، حتى المفكر الكبير زكى نجيب محمود لم ينج من ذلك .

فمنهم من يدعى ـ باسم التقدمية ضرورة ـ الاستغناء عن التراث العربى الإسلامى لأنه عائق فى سبيل التفتح والرقى . فلابد من تنظيف ذهننا الحاضر من بقايا ما علق به من ماضى الأجداد ، ومن بين ذلك

اللسان العربى لكونه ميتا ولايقدر على مسايرة صيرورة التاريخ . فعلى مثل هؤلاء المصلحين ينطبق المثل العربى « أراد تطبيبه فأعماه »

وهناك طائفة أخرى تقدم لنا الغرب ، بكل ماله من مزايا ومساوئ كنموذج أوحد يجب أن نندمج فيه كى ننجو ولا نجاة عن غير ذلك الطريق .

بنى الغرب ثقافاته المعاصرة على أصالته ، فى حين يظهر أن أولئك المصلحين العرب يريدون منا أن نقفز من لا شىء إلى حضارة القرن العشرين ، أو على الأصح ، إلى ميادين انتصار الليبرالية فى القرن العشرين ، متجاهلين التجارب والتيارات الفكرية والتطبيقية الأخرى . إن الوقفة العربية الإسلامية مطالبة — فى الواقع — بأن تحتك بكل التيارات المعاصرة فـ «تعرب » وتصهر فى ذاتيتها وفى « أصالتها» ، ما هو حرى بأن يعينها فى الكفاح ضد التخلف .

فهل الغرب كله محاسن ؟

يفترض بعض مثقفينا أن المعاصرة تقتضى من العرب — قبل كل شىء — أن يضحوا بتراثهم ليتم الاغتراب على أكمل حال .

فما مقدار الربح فى هذه المقايضة ؟

إن محاكاة العرب للغرب استلاب ، ومحاكاته وحده يضاعف هذا الاستلاب . على أن هناك مستوى ثالث للاستلاب ، وهو الأفظع : أن نقلد غربا متحركا أبدا ، وبحركاته ينمى باطراد المسافة التى تفصلنا عنه ، دون أن نحافظ على ارضيةٍ ومعالم ! إنه التيه فى متاهة ، فنحن إذن ، لسنا مستلبين من لدن التراث العربى الإسلامى — كما يدعون — بل من قبل صورة وهمية عن الغرب ، تهيّشنا أكثر فأكثر ، فنزداد انفصالا عن مكوناتنا الأصيلة والأصلية .

فعلاوة على هذا الاستلاب الحلزونى — شكلا وكيفا — نسجل أن الصورة الوهمية عن غرب وهمى ترعرعت نموذجيتها فى عقلنا الواعى وعقلنا اللا واعى . إنها صورة تنزع بإصرار إلى توقيف حركات الغرب ومزجه بعالم « الأنا » . وبقدر ما ينفصل الأنا العربى عن جذوره الأصيلة يغدو قابلا لكل تشكيل ولكل تكييف يمارس عليه ، مع وعى منه وبدون وعى ما دام قد أمسى ، لا هو ذاته ولا غيرها . ينساق المستلب إلى أن يحيا فى زمان ليس عمليا — زماناً واقعيّاً — ، أو على الأصح ليس زمانه . اندفاعا مع التعود على الفردية ، يود لو يفرض نمطه من الحياة على مجموع البشر . إذن : نتواجد فى عالمين ، عالم التغير والتجديد ، وعالم التماثل (ا = ا) الفاقد للحركة لا نبهاره الدائم أمام تصورات خياله عن الغرب .

* * *

إن الغرب نفسه يتغير باطّراد فى صيرورة متصاعدة . فلا غرابة أن يعتمد الغرب على تراثه الخاص عساه يحافظ على معالم ثابتة فى هويته ، وينفتح على ما يجرى خارج مناطقه دون تخوف من الذوبان .

* * *

لن يوصلنا إلى المعاصرة تجديد يرفض الأصالة إطلاقا لا بد من التوفيق بين الأصالة والمعاصرة ، لأنه يجعل بين قوسين التاريخ العربى الإسلامى ، فى حين يدعونا إلى الانفتاح على معاصرة مبنية على أصالة مُن نوع آخر ، على ليبرالية ترتكز على تاريخ الغرب يقينا ، إن هذا الاتجاه يجر إلى استلاب مضاعف : حرمان من التواصل مع التراث القومى العربى الإسلامى . وتقليد عشوائى لتاريخ أجنبى .

إذا كانت المعاصرة انتفاضة ضد التقليد والجمود يستحيل ألا يباركها كل مثقف واع ، أما إذا اعتبرت انتفاضة على ركام الأصالة (الهوية الثقافية والأخلاقية ، أى ما يُكوِّن ويكيِّف الشخصية الحالية) فلن يرغب أحد فى الانسلاخ عن ذاتيته ليرتمى ، بلا قاعدة ، فى أحضان الغير ويزكى الافتقار إلى التكنولوجيا المعاصرة والزعائمية الغربية . علينا أن نقاوم المفاهيم الخرافية والمباحث الضبابية التهريجية التى سُجِنَّا فيها على يد الاستعمار وما نزال سجناءها ، فالمقاومة فى الواجهتين ، تجعلنا « تقدميين » بالفعل لأنها مقاومة تفرض مثلا أعلى تعمل على تحقيقه . إن التطور والعقلنة والموضوعية تؤلف البديل العملى للخرافية .

فمقابلة «معاصرة» بـ « أصالة » مرفوضة . لم يرو التاريخ أن أمة بلا أصالة استطاعت أن تتعصّر ، فبعض المنظرين العرب لا ينازعون فى هذا ، لكنهم يطلقون معنى خاصا على معاصرة : فالعصرى غربى ، كما أن العربى ماضوى لأنه فقد قدرته على التكيف مع التغيرات فأمسى غريبا فى العصر .

فلنفرض الآن أن الهدف هو أن نجعل منا نسخة طبق الأصل للغرب ، إذن فلننسلخ انسلاخا كليا عن شخصيتنا ونخلع على ذواتنا لباس الموت المحنط . أنكون بذلك وفقنا فى الحصول عل بديل لأوضاع التخلف ؟

هذا النوع من الإصلاح والتقدمية لن يُلقى بالشعوب العربية إلا فى مغامرة الغربة والتلف ، لأن التطور والتقدم لا يحْصُلان بطلاء برّاق لامع تبرنق به عظام وهى رميم .

* * *

بحسب التنميط الذى اعتمده صاحب « ثقافتنا فى مواجهة العصر»[1] ، إن الذهنية العربية مختلفة عن الذهنية التى

(١) زكى نجيب محمود ص ٥٧

تجعل القرار الإنسانى غير مسبوق بمعيار ؛ إن وجهة النظر العربية :

« تفترض أسبقية المعيار الذى يقاس به القرار فى صوابه أو خطئه ... إلخ »، بعد إقرار هذه الخاصية العجيبة ، يتساءل المؤلف :

« هل يمكن التوفيق بين أن يكون الإنسان عربيا يحمل هذه الوجهة من النظر وأن يكون فى الوقت نفسه معاصرا يتطور مع الزمان وتغيراته السريعة ؟ » .

بصدد هذا السؤال ، يمكن إبداء بعض الملاحظات :

— كل الذين يزعمون أنه من الممكن أن تدخل أمة المعاصرة ولو بلا أصالة يضربون المثل بالولايات المتحدة . بيد أنهم يتغافلون عن أن الأمريكيين الشماليين ورثوا أصالة أوربية حملوها معهم فى موجات استيطانية متوالية ؛ فاختلط هذا الإرث الضخم الكثيف بما كان عليه السكان الأصليون فالأمة الأمريكية الشمالية مزيج ثقافات اندمجت وزواج بين أجناس مختلفة أتت من القارات الخمس ، حقا قتل القادمون الكثير من الأهالى الأصليين ، لكن الحرب نفسها احتكاكات حضرية رغم كل سلبياتها .

يستخلص مما تقدم معارضة بين « الإنسان العربى » وهو على ما يظهر شبيه بالبدائى لأن ذهنيته ذهنية خاصة (ترفض الحرية والمسؤولية والسببية) . وبين الذهنية المنطقية العلمية القابلة للتجدد ؛ أى العقل القابل لأن يكون : « معاصرا يتطور مع الزمان وتغيراته السريعة » .

ماذا ادعى المستعمرون عندما استولوا على أراضينا ؟

ألم يؤكدوا ، فى الأثنلوجيات الخاصة بالعالم الثالث أن الذهنية ذهنيتان : الأولى تتحرك فى مرحلة ما قبل المنطق وفى طور السير نحو اكتساب التمنطق (بفضل الاحتكاك بالاستعمار) والثانية ذهنية المنطق والإدراك العلمى الخالى من الخرافة والسحر ؟

فعلى حسب تلك النظرية يحيا العربى بذهنية لاعقلانية تؤمن بـ «قانون المشاركة»[1] وتعوم فى ثقافة درويشية تقوم على الأدعية والكلمات السحرية فيقضى أصحابها أوقاتهم فى فك ما فيها من غرابة وغموض ورموز .

فالمفكرون الذين يلحون على أن للذهنية العربية بنيات خاصة تميزها عن بقية الأقوام البشرية إنما يبرهنون — عن

---

(١) أى مايسميه ليڤى — برول بـ participation التى يمتاز بها الذهن — ماقبل المنطق .

غير قصد الأثنلوجيات المصنوعة بعون الاستعمار ولصالحه ، ضد الشعوب الضعيفة .

* * *

الأصالة مجموع أنماط الانفعال والتفاعل ، بها نسمو عندما نسمو ، وعلى حسابها يكون سقوطنا عندما ننحط . فهى إطار الوجدان والضمير فى ترابطهما بفردية كل فرد وبالفردية المجتمعية . إنها نسق عام تنتظم فيـــه وبه حركية العلاقات الجماعية .

فالتقدمية الحق أو المعاصرة الحق ، لا تقصد خلاص الشعوب من ذواتها ، بل ما تقصده هو أن تتحرر الشعوب مما يصيبها من انحرافات عن صواب ذاتيتها. إن وجدان الشعوب وذهنيتها معرضان على الدوام لانحرافات تزحف من كل ميدان فتتقوقع الثقافة وتتفسخ الأصالة ثم تنغلق .

٢ ـ البـاب المغلق :

نعود إلى تساؤل زكى نجيب محمود :

« هل يمكن التوفيق بين أن يكون الإنسان عربيا (....) وأن يكون فى الوقت نفسه معاصرا يتطور . . . ؟ »

الجواب ، بالطبع ، هو : « لا يمكن » إذا تصورنا أن المفكر العربى الإسلامى على الشكل الخاص الذى يتصوره عليه صاحب « ثقافتنا فى مواجهة العصر » ، أى إذا افترضنا أن بين الأصالة العربية الإسلامية والمعاصرة حساسية مفرطة وتناقضا عميقا .

فما الذى يبيح هنا هذا الافتراض ؟ هل « العربى » نوع يتميز عن بقية أنواع البشر ؟ وكيف نبرر تقابل « أصالة » و « معاصرة » ؟

الأصالة العربية الإسلامية تراث امتزجت فيه ذهنيات ، وتخاصب فيه سلوك أجيال بتجارب إنسانية. إنه سمد ذاكرتنا الجماعية ، وفى نفس الآن ، القاعدة التى يقوم عليها شعورنا بالانتساب إلى ما نحن ، وعليه نركز الوثبات نحو ما نريد أن نصير .

فمن الشعوب من فقد الأصالة لضحالتها أو لتفريط فى الحفاظ عليها ، فبات مشلولا لا يقدر على المشى ، ومنها من أعمته أصالته حتى لم يعد له إلا نصف حقله البصرى ، أى لا يبصر كل ما يتجدد حوله ، فيعجز عن الإسهام فى التطور ، ولا يعرف معنى للمعاصرة ، لكن جميع تلك الشعوب مضطرة بدافع غريزة البقاء (البقاء فى التاريخ لا فى هامشه) إلى أن تحاول السير ولو بتعثر ، إلى الأمام ، وأن تفتح البصر على مسيرة التاريخ الحالية ، رغم المنظار الناقص . فالشعوب التى لا تقوم بتلك المحاولات تعرض نفسها للانعدام . إن الأصالة تمنح الشعوب طاقات وسمدا ، وأما المعاصرة فتوجهها لتتحقق تحققا سويا وجهة تاريخية غدية تختفى معها العاهات .

فما بالنا بمن فقد البصر كله والرجلين معا ولا يحاول التغلب على العاهات ؟

ذلك هو الحال المتوقع لكل شعب متخلف (أى لا يتطور / يجهل المعاصرة ، كجل الثالثيين) ، وفى نفس الوقت ، يحبب إليه بعض منظريه أن يتجاوز أصالته / تراثه ، بالعدول عنه والانغمار فى الغرب وفى أصالة الغرب ! . . .

إن المكان الملائم لهذا الحيوان النادر العجيب هو حديقة الحيوانات بين الأصناف التى انقرضت أو التى يخشى انقراضها .

هكذا لا يخلو مفهوما « أصالة » و« معاصرة » من ارتباك . فلامندوحة من أن يطالبانا بالتحديد اللازم كى لا يبقيا فى مهب الريح . فعندما نقول « أصالة » يجب أن نحدد بالنسبة لأى زمان ولأى فترة من الزمان : هل الأصالة هى ماأقرته السلطة أوما أقره المؤرخون (على علاتهم فى الرحلات والحولات والحكايات الخرافية) أو الفقهاء المقلدون (الذين يدعون أن باب الاجتهاد قد أغلق) ؟

أم أن الأصالة هى ما جرت به الأعراف والعادات . . . ؟

أم هى الفلكلور ؟

و« المعاصرة » أهى ما عليه أمريكا الشمالية أم اليابان أم أوروبا وأية أوروبا : الشمالية أم الغربية ؟

وفى غرب أوروبا أيكون النموذج هو البريطانية العظمى أم البرتغال ؟

٣ ـ تأصيل المعاصرة :

يجب أن توضع كذلك الأصالة والمعاصرة بالنسبة لما يرجى منهما ، داخل مجموع الفعاليات الحياتية . إن الأصالة ليست كل التراث ، بل ما تأصل فى ذهنية الشعوب وسلوكها ، أو ما هو قابل لأن يستثمر فى حياتها حاليا . فالشعوب التى لا تستأنس بتراثها عند بناء مستقبل ترتضيه ، طبقاً للنماذج المعاصرة التى اختارتها ، شعوب مبتورة من حاسة التاريخ ومن الثقة بالنفس فكثير من المثقفين العرب مستلبون عموديا (قطيعة مع التراث العربى الإسلامى) وأفقيا (لأن تلك القطيعة تفصلهم عن الجماهير العربية والإسلامية) . فهم ضحية الانبهار بالغرب ـ كحاضر وكتراث ـ فمن المنظرين العرب للتجديد من يتأملون غالبا بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية وهم يتكلمون عن الأصالة العربية الإسلامية أو عن تعصير مجتمعاتهم .

إن التآنى الذى نريد أن يربط الأصالة بالمعاصرة جانب من جوانب المثاقفة فى معنى تلاقح ثقافتين أو أكثر قديمة (تراث) مع حديثة (معاصرة) ؛ فمثلا إذا تلاقحت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات غربية حصل تلاحم ثقافى ينتج عنه نمط حى جديد ينسجم وأوضاعنا . فإلى أى حد تجوز مقابلة « أصالة » لدى أمة أو فرد ما ، بـ «خصوصية» ، فإذا كانت الأصالة حقا « تلتفت إلى الماضى » ، فلماذا يعاب عليها تمركزها فى التاريخ ؟ أيتصور وجود أمه أو فرد بلا تاريخ ؟

سؤال آخر :

هل « الخصوصية » تنفصل عن التاريخ؟

كيف يجوز وصفها بأنها « متطورة » وهى منفصلة عن التاريخ ؟ أليس التاريخ بنية التطور ؟

تؤكد الأنثربلوجيا الحديثة أن «التراكم»(١) عملية ضرورية لنشوء الحضارات ونموها تمثل كل حضارة فى فترة ما مجموع العناصر المادية والمعنوية التى تجمعت لدى الأجيال الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال السابقة ، فى تتابع الأزمان ، وأضافت إليها خبرات وعطاءات جديدة . والعطاء الجديد إنما هو إضافات عناصر «عصرية» حية(حيوية) للتطور منها يتكون تراث الأمة أى تركات العصور السالفة (الماضى ، الأصالة الخاصيات القومية ، التاريخ ، . . .) .

* * *

أما بخصوص ما يدعيه « ع . العروى » من « تحجر الأصالة » ، فيجب أن نفرق بين تاريخ انقرض بانعدام الأمة أو الفرد — ويعى المتحدث أنه كذلك قد انتهى — وبين « تاريخ أصيل » ؛ أى ما زال يجرى فى عروق الأمة ويحدد رؤاها وسلوكها (جزئيا أو كليا) ، فتتطور به وتطوره .

إن الأصالة التى يتعرض لها «العروى» هى الأصالة العربية الإسلامية . كلنا نعرف أن العروبة والإسلام فى صيرورة تحتد فى قطاعات وتقل أو تجمد فى أخرى ، بحسب مستويات المثاقفة ، هنا أو هناك وبحسب توتر حياتها الداخلية وقدرتها على التواصل مع التيارات الخارجية .

فليست الأصالة تجمدا محضا ، كما أن المعاصرة ليست تجددا محضا . فالجمود يصيب حتى التجديد ، فى بعض الحالات ولو لفترة (عوائد وأعراف غابت ، ثم طفت على ساحة التاريخ) ويصيب « الموضات » فتضمحل إلى الأبد ، بعد أن يتحمس لها الناس ويجعلون منها شعارا ورمزا للمعاصرة .

إن النظرة الأحدية تجر إلى الوثوقية ، على أن النظرة الازدواجية ، هى أيضا لا تخلو من خطر . فعندما يعطى زكى نجيب محمود نظرية عن الأصالة مرة بيضاء ناصعة ومرة سوداء حالكة ، لا يجد لدعم ذلك إلا أمثلة اختيرت اعتباطا تجره إلى بعض التناقضات .فهو يدعى أن الخلفاء لم يكونوا يتمتعون بحرية فى أعمالهم ، بينما نراهم فى كتابه نفسه ، يستبدون بالحكم ، أى يتمتعون بحرية مطلقة مع حرمان الرعية منها .

ولماذا لا يرى زكى نجيب محمود فى العصر العباسى إلا الطوائف الكلامية ؟

---

(١) accumulation= عملية تجمع بها تنشأ الحضارات وتنمو . فكل حضارة تمثل — فى فترة ما — مجموع العناصر المادية والمعنوية التى تجمعت لدى الأجيال الحاضرة ، بعد أن ورثتها عن الأجيال السابقة وأضافت إليها خبراتوعطاءات .

أين غناء وآداب ومجالس الظرف وفكاهة وأندية علمية ومعارك فلسفية ولغوية . ومراكز ترجمة ؟

أين اختراعات واكتشافات ؟

إن كل ثقافة تعرف تناقضات . صفحات مشرقة وأخرى مخزية. فمثلا في القرن العشرين تواجدت إنسية ماركسية محررة ومتفتحة على التقدم مع ماركسية كاسحة طوطمية تعطل الفكر المعاصر وستالينية سفاكة للدماء ومعادية للحريات . كما تواجدت بأمريكا شمالية (رغم تخلفها في الاكتشاف والاختراع) سادية ماكارثية مقيتة . أما ألمانيا النازية فقد ساد فيها فكر جبار مبدع في خضم من العنصرية والوحشية .

* * *

لا ريب أن بالفكر — حتى الأكثر عقلانية — قابلية لمزج أدلة عقلية بأدلة « وجدانية » . فغالبا ما ينطلق المكافحون انتصارا للمعاصرة من افتراض أن الغرب وثقافة الغرب قد استقر تقديرهما في الوجدان العالمي وأنهما المصدران لكل رقي ولكل إنقاذ من التخلف . وبما أن هذا الموقف قبلي لا استنتاجي أو استقرائي . جاء بلا دعامة علمية : إنه مجرد انبهار .

هذا أولا. وثانيا : على أي أساس يريد خصوم الأصالة أن نبني تفكيرنا وآمالنا؟ أعلى مركزية الغرب، في الوقت الذي يبدي كثير من مفكريه بالبحث عن ركائز جديدة وبإعادة النظر في مكوناته النظرية والأخلاقية والتكنولوجية ؟

أنأخذ عن الغرب ما يماري فيه هو نفسه ، أو ما هو في طريق البحث عنه وما يصادفه ؟

علينا أن نقتنع بنسبية الحضارات . حتى الغربية منها فالإيمان بمركزية الحضارة الغربية استلاب يعمي الرؤية عن الواقع والإمكانات ويسد آفاق المستقبل . نعم إن الاقتباس من الغرب واعتبار حضارته معطيات تاريخية إنسانية شيء ضروري .

الثقافات القومية كلها نسبية . فلا صدارة مشروعة ولا مركزية دائمة لهذه أو لتلك ، وفي كل الميادين وعلى مستوى النموذج سوى في (عالم المثل)[1] . فالجائز والمعقول هو تبادل الخبرات والاحتكاك الثقافي والاقتباس ، أما التبني والنسخ التام فلا يحصل عنه إلا المسخ التام .

ولنتأمل هذا المثال : زكي نجيب محمود يكتب بالعربية ، بفن وإتقان ، كعيون كتابنا الاتباعيين الكبار . وتشعرك كتاباته بأنه متعمق في التراث العربي الإسلامي كما تشعرك بأنها لحمت بعناصر غربية تلحيما مستساغا مما يعطي لأسلوبه في

(١) في كتابنا من المتغلق إلى المنفتح عشرون حديثا عن الحضارة الإنسانية والثقافات القومية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية .

الكتابة وفى التفكير طابعا لا معا خاصا ، هذا ما لا تحس به فيما ينشره كتاب من جيله لم يتثاقفوا . فلو كان زكى نجيب محمود أحدىّ الثقافة (إما عربية إسلامية ، أو غربية محضة) لما أعطى ما أعطى ، وعلى المستوى الذى نعرفه ونعتز به فالإمّية (إما المعاصرة وإما الأصالة) لن تمدنا أبدا بأمثال زكى نجيب محمود . إنها فقر ثقافى فاقع اللون يجعل من (إمية) ، بهذا المعنى ، معادلة لـ « أمية » . هذا يذكرنا بما صرح به الحسن الثانى فى حديث مع الإذاعة والتلفزة الفرنسية (أواخر نوفمبر ١٩٧٦)

« إن الأمى هو الذى لا يعرف إلا لغة واحدة » .

ونأخذ « لغة » هنا بمعنى لسان وثقافة، وبالتالى ذهنية أحدية .

فواجبنا أن نقتبس من الغرب ما ننمى به ما عندنا ، بحسب الحاجات دون أن نتغرب باسم المعاصرة . فلا فائدة فى أن نبدأ من حيث بدأ الغرب تاريخه لنصل إلى الليبرالية ، طبقا لنصيحة عبد الله العروى ، كما لا فائدة فى أن نجعل من الغرب الغاية والنموذج والوسيلة وهو يتجدد يوميا . إن الغربيين أنفسهم يحاربون انحرافات فكرية وسلوكية تسود حاليا مجتمعاتهم .

فلا استعداد للالتحاق بالمعاصرة عند من لا أصالة له ، لأنه بلا جذور إن الأصالة وفاء بالعهد نحو التاريخ القومى ، ما دام لهذا التاريخ قدرة على إضاءة الحال والإسهام فى خلق المستقبل . فدراسة تاريخ الأمة ليست هى الحفر على دفائن المقابر ، بل بناء يتجدد . التراث الحى هو الذاكرة الجماعية التى يستوحى منها الشعب قيمه .

النتيجة العامة لمجموع ما سبق هى : وجوب تأصيل المعاصرة. وتعصير الأصالة/ تكييفها داخل الصراع ضد التخلف .

محمد عزيز الجبابى
عضـــو المجمع
المراسل من المغرب